مفاتيح الوسائل المفيدة

للحيِّاة السَّعِيدَة



الطبعة الأولى
١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠ م



الكويت- الجهراء- القيصرية القديمة- مجمع كابيتول مول- السرداب- محل ٢٤
Website : www .daradahriah .com
E-mail : daradahriah@gmail .com
(+965) 99627333 - (+965) 51155398

الموزعون المعتمدون

دار أندلسية للنشر والتوزيع
(الكويت)
darandalusia@hotmail.com
(+965) 94747176

دار التدمرية للنشر والتوزيع
(الرياض)
tadmoria@hotmail.com
(+966) 114925192

مكتبة الميمنة المدنية
(المدينة المنورة)
daralmimna@gmail.com
(+966) 558343947

مكتبة الشنقيطي للنشر والتوزيع
(جدة)
hassan_hyge@hotmail.com
(+966) 504395716

المكتبة الأسدية للنشر والتوزيع
(مكة المكرمة)
alasadi2000@hotmail.com
(+966) 125273037

مفكرون الدولية للنشر والتوزيع
(مصر الجديدة)
mofakroun@gmail.com
(+2) 01110117447

مفاتيح الوسائل المفيدة
للحيِّاة السَّعِيدَة

تأليف
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
١٣٧٦هـ

علق عليها
د. محمد بن سرّار بن علي اليامي


بسم الله الرحمن الرحیم

المقدمة

الحمد لله الذي له الحمد كله، وأشهدُ أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وحدهُ لا شريك له، وأشهدُ أن محمدًا بعدهُ ورسوله، صلى الله عليه وسلم وعلى آلهِ وأصحابهِ وسلم.

أما بعد: فإنَّ رَاحَة القَلْب وطُمأنينته وسُروره، وَزَوَال هُمُومه وغُمُومه هو المَطْلب لكل أحد، وبه تَحْصُل الحياة الطَّيبة، ويتم السُّرور والابتهاج ولذلك أسبابٌ دينيةٌ، وأسبابٌ طبيعيةٌ، وأسبابٌ علميةٌ.

ولا يمكن اجتماعها كلّها إلا للمُؤمنين(١)، وأما مَنْ سُوَاهم فإنها وإن حَصلت لهم من وجهٍ وسَبَبٍ يجاهد عقلاؤهم عليه فاتتْهُم من وَجْهٍ أنفع وأثبت وأحسن حالًا ومآلا(٢).

---

(١) يقول ابن رجب: «ولا صلاح للقلب بدون الإيمان بالله..» ا. هـ. إذا عُلِمَ هذا فهل يُعلم أن الإيمان بالله ﷻ هو مفتاح السعادة في الدارين وأصلٌ أصيل في دفع الشرور والأحزان عن أهل الإيمان يقول ابن القيم في الفوائد: «فما دُفعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد، ولذلك كانَ دعاء الكَرب بالتوحيد، ودعوةُ ذي النون التي ما دعى بها مكروبٌ إلا فرَّج اللهُ كربه بالتوحيد...» ا.هـ.

(٢) وصدق إذ أن أكمل الطمأنينة، والسعادة، والرضى، في الإيمان باللهِ جل في علاه..؛ وأن أفضل الأعمال عند الله وأزكاها هو الإيمان لِمَا روى أبو ذر رضي الله عنه من سؤالهِ لرسول الله ﷺ بقوله: «يا رسول الله، أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: الإيمان بالله والجهاد في سبيله».
وأيضًا يقول الحق ﷻ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، ويقول ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، فجعل سُبحانه أصلُ الطمأنينة والسعادة هو ذكرهُ ﷻ، وأعظم الذكر: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، ولو توافرت لهُ الأسباب الحسية المادية كلها بلا إيمان، فلا سعادة...

ولكني سأذكر برسالتي هذه ما يحضرني من الأسباب لهذا المطلب الأعلى، الذي يَسْعَى له كل أحد.

فمنهم: من أصاب كَثِيرًا منها، فَعَاش عيشةً هنيئةً، وحَيي حياةً طيبةً .

ومنهم: من أَخْفَق فيها كلها، فعاش عيشة الشَّقاء وَحَيي حياة التُّعساء.

ومنهم: من هو بَيْن بَيْن، بحسب ما وفق له.

والله الموفق المُسْتَعَان به على كل خير، وعلى دَفْع كل شَرّ(١).

وصدق من قال: مقلةٌ بلا إيمان عمياء.. وقلبٌ بلا إيمان مضغة لحم.. ورأسٌ بلا إيمان فارغ..
وحياةٌ بلا إيمان موتٌ محتمُ..

(١) ومعيارُ هذه الأسباب وميزانها هو الإيمان بالله وبملائكته وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ واليوم الآخر، والقدر خيرهُ وشره، حُلوه، ومُرّه من الله جل في عُلاه... فمن تَمَّ إيمانهُ تَمّتْ له السعادة، وبقدر نقصه تنقص السعادة.. يقول ابن رجب ؒ:"ما قدم أحدٌ حق الله على هوى نفسه وراحتها إلا ورأى سعادة الدنيا والآخرة، ولا تمكَسَ أحدٌ ذلك وقَدَّم حظَّ نفسه على حق ربه إلا ورأى الشقاوة في الدنيا والآخرة» ا.هـ.
وسيأتي كلام الشيخ عن أُسّ السعادة وأعظم أسبابها..

فصل

١ - وأَعْظَمُ الأسباب لذلك وأَصْلها وأُسُّها هو:
الإيمان والعمل الصَّالح

قال تَعَالَى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

فأخبر تَعَالَى، ووعد من جمع بين الإيمان والعمل الصالح، بالحياة الطَّيبة في هذه الدَّار، وبالجزاء الحَسَن في هذه الدَّار، وفي دار القَرار.

وسَبَبُ ذلك واضح؛ فإنّ المؤمنين بالله الإيمان الصَّحيح[١]،

(١) إذا أن تعريف الإيمان هو: القول باللسان، واعتقاد بالجنان والعمل بالجوارح والأركان، ويزيد بالطاعة، وينقص بالعصيان.. **وإن سئلت عن سُبل تقويته فدونكها:**
أ- المحافظة على الفرائض.
ب- مصاحبة أهل الإيمان؟ ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ ﴾ [الكهف: ٢٨].
ج- التفكر في النعم.
د- الجد والاجتهاد في الأعمال الصالحة.
هـ- الدعاء.
و- الدعوة إلى الله وتبليغ دينه.
ز- تعظيم حُرمات الله وشعائره، ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ [الحج: ٣٢].
ح- محاسبة النفس.
ط- زيارة القبور واتباع الجنائز للرجال، وعيادة المريض.
هذه جملة من السبل المقوية للإيمان في قلب المؤمن كي يزداد سعادة إلى سعادته.

المُثْمِر للعمل الصَّالح المُصْلِح للقُلوب والأخلاق والدُّنيا والآخرة،

وإن سئلت عن أسباب قسوة القلوب، ومفاتيح ضعف الإيمان فمنها:

أ- استصغار الذنوب، وعدم المبالاة بها. «إياكم ومحقرات الذنوب».

ب- تنافس الدنيا والخلود لها والميل عن عمارة الدار الآخرة.

ج- الغفلة عن ذكر الله.

د- ورود الآفات القلبة من الرياء، والعُجب، والشُّح، والغرور وغيرها.

هـ- مخالطة رفقاء السوء.

و- كثرة الإسراف في المباحات.

ز- الإبتعاد عن البيئة الصالحة، والقدوات الصادقة.

ح- طول الأمل، والتسويف، وغيرها كثير.

وإن سئلت عن آثار الإيمان في الحياة فمنهها:

أ- الانقياد للشرع والزيادة في الخير.

ب- الحماية من لوثات الشرك، والبدع.

ج- الحب في الله، والبغض في الله.

د- الصبر، فإنه حبس النفس في سبيل رضى الرب.

هـ- تولي الله ورسوله.

و- إكسابه للمؤمن الخلق الحسن.

ز- السعادة الحقيقية، والراحة النفسية.

وإن سألت عن ثمار الإيمان في الحياة وجدت منها:

أ- حصول المعية الخاصة والعامة من الله للمؤمنين.

ب- الفوز برضى الله والجنة.

ج- دفاع الله عن أوليائه وحزبه وأحبابه.

د- الرفعة في الدين والإمامة فيه.

هـ- محبة الله لهم.

و- الحياة الطيبة في الدارين.

ز- محبة الله لهم ومحبتهم له.

ح- حصول البشري بالكرامة من الله لهم ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

ط- الثبات على الطاعات.

ي- الإنتفاع بالموعظة، والاتعاظ بالنصيحة.

ك- حصولهم على الخير في كل حال من سعة وضيق، فعجبًا لأمر المؤمن.

ل- عصمة العبد من الوقوع في الفواحش والموبقات.

معهـم أصُول وأسـس يتلقـون فيها جميع ما يرد عليهم من أسـباب السُّـرور والابتهـاج، وأسـباب القَلَـق والهـمّ والأحزان.

يَتَلَقّـون المَحَـاب والمَسَـار بقَبُـولٍ لها، وشُـكْرٍ عليها، واسـتعمال لها فيمـا ينفـع، فإذا اسـتعملوها على هـذا الوجه، أَحْـدَثَ لهم مـن الابتهاج بها والطَّمـع فـي بقائهـا وبركتها، ورجـاء ثواب الشَّـاكرين، أمـورًا عظيمة تفوق بخيراتهـا وبركاتهـا هذه المَسَـرَّات التي هـذه ثمرتها.

وَيَتَلقّـون المَـكَاره والمَضَـار والهـمّ والغَـمّ، وبالمقاومة لمـا يُمكنهم مقاومتـه وتخفيـف ما يُمكنهـم تخفيفه، والصَّبـر الجميل لما ليـس لهم عنه بُدٌّ.

وبذلـك يَحْصُـل لهـم مـن آثـاره المـكاره مـن المقاومـات النافعـة، والتجـارب والقـوة، ومن الصَّبر واحتسـاب الأجـر والثواب أُمـورًا عظيمة، تضمحـل معهـا المـكاره، وتحـلّ محلهـا المَسَـار، والآمـال الطيبة.

والطَّمع في فضل الله وثوابه.

كمـا عَبَّـرَ النبـي ﷺ عن هـذا، في الحديـث الصحيـح أنه قـال: «عَجَبًا لأَمْـرِ المُؤْمِـن، إنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْر؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَـرَّاء شَـكَرَ فـكانَ خيرًا لهُ، وإن أَصَابتـهُ ضَـرّاء صَبَـر؛ فكانَ خَيرًا لـهُ، وليسَ ذَلِـكَ لأَحَـدٍ إلا للمُؤْمِن»[١].

فأخبـر «أن المؤمـن يَتَضَاعَف غُنْمـه وخيره، وثمـرات أعماله، في كل ما يطرقـه من السُّـرور والمَكَاره.

لهـذا تجـد اثنين تطرقهمـا نائبة مـن نوائب الخيـر أو الشـر، فيتفاوتان

---

(١) رواه مسلم.

تفاوتًا عظيمًا في تقليها، وذلك بحسب تفاوتهما في الإيمان والعمل الصالح[(١)].

هذا الموصوف بهذين الوصفين يتلقى الخير والشر بما ذكرناه من الشكر والصَّبر وما يتبعهما، فيحدث له السرور ولابتهاج، وزوال الهم والغم والقلق وضيق الصَّدر، وشقاء الحياة، وتتم له الحياة الطيبة في هذه الدار.

والآخر يَتَلَقَّى المحاب بأشرٍ وبطرٍ وطغيان، فَتَنْحَرِف أخلاقه وَيَتَلقَّاها كما تَتَلَقَّاها البهائم بجشعٍ وهَلَع.

ومع ذلك فإنه غير مستريح القلب، بل مُشَتَّتَه من جهات عديدة مُشَتَّت من جهة خَوفه من زَوَال محبوباته، ومن كثرة المعارضات النَّاشئة عنها غالبًا، ومن جهة أن النفوس لا تقف عند حد، بل لا تزال مُتَشَوِّفة لأمور أخرى، قد تَحْصُل وقد لا تَحْصُل، وإن حَصَلَت على الفرض والتَّقدير؛ فهو أيضًا قَلِق من الجهات المذكورة.

ويتلقَّى المكَاره بِقَلَقٍ وجَزعٍ وخوفٍ وضجرٍ، فلا تسأل عن ما يَحْدُث له من شقاء الحياة، ومن الأمراض الفكرية والعصبية، ومن الخوف الذي يَصِل به إلى أسوأ الحالات وأفظع المُزْعِجات، لأنَّه لا

(١) يقول ابن القيم: «إن ما يصيب المؤمنين في الله تعالى مقرون بالرِّضا والاحتساب، فإن فاتَهُمْ الرِّضا فمعوَّلهم على الصبر، وعلى الاحتساب وذلك يُخَفِّف عنهم ثقل البلاء ومؤنته، فإنهم كلما شاهدوا العِوَض، هان عليهم تحمُّل المَشَاق والبلاء، والكفار لا رضا عندهم ولا حسَاب، وإن صبروا فكصبر البهائم، وقد نبه الله تَعَالَى على ذلك بقوله: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء: ١٠٤]» ا هـ.

يرجوا ثوابًا، ولا صبر عنده يسليه ويهون عليه.

وكل هذا مُشَاهَد بالتَّجربة.

ومثلٌ واحدٌ من هذا النوع، إذا تَدَبَّرته، ونزّلته على أحوال الناس رأيت الفرق العظيم بين المؤمن العامل بمقتضى إيمانه، وبين من لم يكن كذلك؛ وهو: أن الدِّين يحثُّ غاية الحثِّ على القَنَاعة بِرِزْقِ الله، وبما آتى العباد من فضله وكرمه المتنوع.

– فـ«المؤمن» إذا ابْتُلي بمرض أو فقر، أو نحوه من الأعراض التي كل أحد عُرضة لها، فإنه بإيمانه، وبما عنده من القناعة والرِّضى بما قَسَمَ الله له تجده قرير العَين لا يَتَطَلَّب بقلبه أمرًا لم يُقَدَّر له، ينظر إلى من هو دونه ولا ينظر إلى من هو فوقه، وربما زادت بهجته وسُروره ورَاحته عَلَى من هو مُتَحَصِّل عَلَى جميع المطالب الدنيوية إذا لم يؤت القَنَاعة.

– كما تجد هذا الذي ليس عنده عمل بمُقْتَضى الإيمان، إذا ابتلي بِشَيءٍ من الفقر أو فَقْد بعض المطالب الدنيوية، تجده غاية في التَّعَاسة والشقاء.

ومثلٌ آخرٌ: إذا حدثت أسباب الخوف وألَّمت بالإِنسان المزعجات.

– تَجِدُ «صَحِيح الإيمان»؛ ثَابت القلب، مُطْمَئن النفس، متمكنًا من تدبيره وتسييره لهذا الأمر الذي دَاهَمَهُ، بما هو في وسْعه من فِكْرٍ وقولٍ وعملٍ، قد وطَّن نفسه لهذا المزعج المُلِم.

وهذه أحوال تُريح الإنسان وتُثَبِّت فؤاده.

كما تجد «فاقد الإيمان» بِعَكْس هذه الحال، إذا وقعت المخاوف انزعج لها ضميره، وتوتَّرت اعصابه، وتَشَتَّت أفكاره، ودَاخَلَهُ الخوف والرُّعب، واجتمع عليه الخوف الخارجي، والقلق الباطني الذي لا يمكن التعبير عن كنهه.

وهذا النوع من الناس إن لم يحصل لهم بعض الأسباب الطبيعية التي تحتاج إلى تمرين كثير، انهارت قواهم، وَتَوَتَّرَت أعصابهم؛ وذلك لِفَقْد الإيمان الذي يحمل على الصَّبر، خُصوصًا في المحال الحرجة، والأحوال المحزنة المزعجة.

فالبَرّ والفَاجر، والمؤمن والكافر يشتركان في جَلْب الشجاعة الاكتسابية وفي الغريزة التي تُلَطِّف المخاوف وتُهونها، ولكن يتميَّز المؤمن بقوة إيمانه وصبره وتوكله عَلَى الله واعماده عليه واحتسابه لثوابه أُمُورًا تزداد بها شجاعته، وتخفف عنه وطأة الخوف وتُهَوِّن عليه المَصَاعِب.

كما قال تَعالَى: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

ويَحْصُل لهم من معونة الله ومعينه الخاص ومَدَده ما يُبَعْثِر المخاوف.

وقال تَعالَى: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

٢- ومن الأسباب التي تُزيل الهم والغم والقلق:
الإِحسان إلى الخلق بالقول والفعل، وأنواع المعروف

وكلها خير وإحسان[١].

وبها يدفع الله عن البَرْ والفَاجِر الهُموم والغُموم بحسبها، ولكن للمؤمن منها أكمل الحَظِّ والنَّصيب[٢]، ويتميَّز بأن إحسانه صَادِر عن إخلاص واحتساب لثوابه، فيهون الله عليه بَذْل المَعْرُوف لما يرجوه من الخير ويَدْفَع عنه المكاره بإخلاصه واحتسابه.

• قال تَعَالَى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٣] [النساء: ١١٤].

فأخبر تَعَالَى أن هذه الأمور كلها خير ممن صَدَرت منه، والخير يَجْلب الخير[٤]، ويدفع الشَّر، وأن المؤمن المُحْتَسِب يُؤتيه أَجرًا

(١) وصدق من قال: أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهمُ لطالما استعبدَ الإنسان إحسانُ
(٢) وقد جاء عن بعض الصحابة ﷺ قوله: صنائع المعروف تقي مصارع السوء.
(٣) إذ أن المؤمن الباذل الخير لمستحقيه... أكملُ حالاً، ومآلاً من غيره.. فهو يرجو رحمة ربه، وهم يرجون عرضًا من الحياة الدنيا، ولا مقارنة، ولا مشابهة..
علاوة على هذا فهو صاحبُ إخلاصٍ في بذله لوجه الله، واتباع لمنهج رسول الله ﷺ، فليس صاحب شهرة، أو طالب سمعة، لأنهُ تعلم... «من راءى راءى الله به... ومن سَمَّعْ سَمَّعَ الله» فسار في طريق المخلصين.
(٤) والحسنة تقول: أختي ... أختي...

عظيمًا[١].

ومن جملة الأجر العظيم: **زَوَال الهَمّ والغَمّ والأكدار ونحوها**.

(١) في الدنيا من تفريج الكرب، وإزالة الهَمّ والغَمّ، وفي الآخرة من الرضى، والرضوان، والنعيم والجنات، والدرجات العاليات، نسأل الله الكريم من فضله...

فصل

٣- ومن أسباب دَفع القَلَق النَّاشئ عن توتر الأَعْصَاب، واشتغال القلب ببعض المُكَدِّرات:

فإنها تُلهي القلب عن اشتغاله بذلك الأمر الذي أقلقه، وربما نسي بسبب ذلك الأسباب التي أَوجَبَت له الهَمّ والغَمّ، فَفَرحت نفسه، وازداد نشاطه.

وهذا السَّبب أيضًا مشترك بين المؤمن وغيره، ولكن المؤمن يَمْتَازُ بإيمانه وإخلاصه واحتسابه في اشتغاله بذلك العلم الذي يَتَعَلَّمه أو يعمله، ويعمل الخير الذي يعلمه.

إن كان عبادة فهو عبادة؛ وإن كان شُغلًا دنيويًا، أو عَادة دنيوية أَصْحَبها النِّية الصالحة، وقصد الاستعانة بذلك على طاعة الله.

فلذلك أَثَرُهُ الفَعَّال في دفع الهَمّ والغُمُوم والأَحزَان.

فكم من إنسان ابْتُلي بالقَلَق، ومُلازمة الأكدار، فحَلَّت به الأمراض المُتَنَوِّعة، فَصَار دواؤه النَّاجح، نِسيان السَّبب الذي كَدَّره وَأَقلَقَهُ واشتغاله بِعَمَلٍ من مُهِمَّاته[١].

(١) «إني لَأَمْقُت الرَّجل أَراهُ فَارِغًا، لا في عَمَل الدِّين وَلا في عَمَل الدُّنيا» قالها سلفنا الصالح ﵃ حينما علموا أن الفراغ خطيرٌ جِدّ خطير على حياتهم، وعلى دنياهم ودينهم...

وينبغي أن يكون الشُّغل الذي يشتغل فيه مما تَأْنس به النَّفس وتَشْتَاقُه فإن هذا أَدعَى لحصول هذا المقصود النافع والله أعلم.

٤- ومما يدفع به الهم والقلق:

اجتماع الفِكْر كُله على الاهتمام بعمل اليوم الحاضر

وقطعه عن الاهتمام في الوقت المستقبل وعن الحُزن على الوقت الماضي.

ولهذا استعاذ النبي ﷺ من الهَمِّ والحَزَن(١).

فـ«الحَزَن»: على الأُمور الماضية التي لا يمكن رَدّها ولا استدراكها(٢).

---

(١) ففي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الهَم والحَزَن، والعجز والكسل والجُبن والبُخْل، وضَلَع الدّين، وغَلَبَة الرِّجال» رواه البخاري ومسلم.

(٢) قال ابن القيم رحمه الله: «فالحزن هو بلية من البلايا التي نسأل الله دَفْعَها وكَشْفها، ولهذا يقول أهل الجنة: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤] فحمدوه على أن أذهب عنهم تلك البلية ونجاهم منها». اهـ.

قلتُ: وحياة العبد على أطوار...

• فَطَورٌ مضى ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ [البقرة: ١٣٤]، فلا تأسى عليه، ولكنجدد حياتك بتجديد أهدافك ووسائلك المشروعة وطموحاتك وهمتك.

• وطورٌ أنت فيه، وصدق من قال:

ما مضى فات والمؤَمَّلُ غيبٌ ... ولك الساعة التي أنتَ فيها

نعم لك هذا الطور، وهو جديرٌ بإهتمامك، واجتهادك، وجدِّك ... بل بالصبر والبذل فتنجح وتفلح.

• وأما المستقبل فـ ... «علمهُ عند ربي في كتاب» ... نعم... هو من الغيب، ومن الجهل إعمالُ العقل في أمورٍ لم تقع بَعْدُ، ولو وقعت، كيف تكون، ومتى؟ ... هذا جنونٌ وسفه.. إن هذا من صرف الطاقات وتضييع الأوقات.. ولقد دعى عقلاء بني البشر لقاعدة عظيمة أصلها في الحنفية السمحاء ... «إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر

و«الهَمَّ»: الذي يَحْدث بسبب الخوف من المستقبل.

فيكون العبدُ ابنَ يومه، يجمع جده واجتهاده في إِصلاح يومه ووقته الحاضر، فإنَّ جمع القلب على ذلك يوجبُ تكميل الأعمال، وَيَتَسَلَّى به العبد عن الهَمِّ والحزن.

والنبي ﷺ إذا دعا بدعاء أو أرْشَد أُمَّته إلى دعاء؛ فهو يَحُثُّ مع الاستعانة بالله، والطَّمع في فضله، على الجد والاجتهاد في التَّحقق لحصول ما يدعو لِحُصُوله، والتَّخَلِّي عما كان يدعو لدفعه؛ لأن الدُّعاء مقارن للعمل.

فالعبد يجتهد فيما ينفعه في الدِّين والدنيا، ويسأل ربه نجاح مقصده ويستعين به على ذلك.

الصباح... » الحديث...
وهي «يومك ... يومك».. فإن أراد العبد النجاح والفلاح، والتقدم فلابُدَّ من اغتنام الأيام، والساعات والدقائق والثواني..، وجُدَّ واجتهد في اغتنام الأزمنة فإنما العمر الزمن؛ ويومك مزرعةٌ لغدك... وأحسن لا تعيش إلا في حدود يومك..
فيه حقق أمر ربك..
وأعط كُلَّ ذي حقٍ حقه..
واترك المستقبل حتى يأتي، فإذا أتى فتجشَّم له... وأعمل فيه، وبادر قبل أن تُبادر.. ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]. ولا تسبق الأحداث والأزمان.. فتأخذ البيضة من بطن الدجاجة، والثمرة قبل النضج.
ثم أعلم أن فتح كتاب الغيب يولِّدُ شرورًا للذهن، وشحنًا للعقل بما لا طائل من ورائه...، بل هو الموردُ للهموم والغموم والأحزان.. ولمخاوف المتراكبة، من المستقبل الآتي، ومن تأمينه، وليس هذا إلا من عَمَلِ البَطَّالين... ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة: ٢٦٨]...
فاترك المستقبل حتى يأتي، فأنتَ في شُغلٍ عنهُ بيومك فإذا أتى فاهتبل الفرصة فقد لا تعود.. ا.هـ.

كما قال ﷺ: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله، ولا تعجز وإذا أصابكَ شيءٌ فلا تقُل: لو أنِّي فعلتُ كذا كان كذا وكذا، ولكن قُل: قَدَرُ الله وما شاءَ فعل، فإنّ لو تفتح عمل الشيطان»(١).

فجَمعَ ﷺ بين الأمر بالحِرْص على الأمور النَّافِعة في كل حال والاستعانة بالله وعَدَم الانقياد للعجز الذي هو الكسل الضَّار، وبين الاستسلام للأُمور الماضية النافذة، ومُشاهدة قضاء الله وقدره(٢).

وجعل الأمور قسمين:

(١) قسمًا يمكن العبد السَّعي في تحصيل ما يمكن منه، أو دفعه أو تخفيفه: فهذا يُبْدي فيه العبد مجهوده ويَستَعين بِمَعبُوده.

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المُؤمنُ القَويّ خيرٌ وأحبُ إلى الله من المُؤمن الضعيف، وفي كُلٍّ خَيرٌ. احرص على ما يَنْفَعُكَ..» الحديث.

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى، بعد أن ذكر الحديث: «فأمره بالحرص على ما ينفعه، والاستعانة بالله، ونهاه عن العجز الذي هو الاتكال على القدر، ثم أمره إذا أصابه شيء أن لا ييأس على ما فاته، بل ينظر إلى القدر، ويُسَلِّم الأمر لله، فإنه هنا لا يقدر على غير ذلك، كما قال بعض العقلاء: الأمور أمران: أمر فيه حيلة، وأمر لا حيلة فيه، فما فيه حيلة لا يعجز عنه، وما لا حيلة فيه لا يجزع منه» ا.هـ.

قلتُ: وإن مطالعة صحائف العمر التي مضت وتقليبها فيه تقليب للمواجع، واستحضارٌ للهموم، وجلبٌ للغموم، وهدمٌ لليوم الحاضر، والغد المشرق بمعول الآلام ... فهل يستجلب الهموم عاقل؟!! وهل يطرد السعادة لبيب ؟!!

والخُلاصة:

- أن إعمال الفكر فيما مضى بُلهٌ وحمقٌ وجنونٌ وعته.
- وإعمال الفكر فيما يأتي ويستقبل جهلٌ وتهور وركون.
- وإعمال الفكر فيما أنت فيه هو الحق، والصدق، ففيه النجاح والفلاح، والتقدم والإنتاج في الدارين بإذن الله»... ا.هـ.

(٢) وقسمًا لا يمكن فيه ذلك: فهذا يَطمئن له العبد ويرضى ويُسَلِّم.

ولا ريب أن مُرَاعاة هذا الأَصل سبب للسُّرور، وَزَوَال الهمّ والغمَ.

فصل

٥- ومن أكبر الأسباب لانشراح الصَّدر وطمأنينته:
الإكثار من ذكر الله

فـإن لذلـك تأثيـرًا عجيبًا فـي انشـراح الصَّـدر وطمأنينتـه وَزَوَال هَمِّه وغمه[١].

(١) فالذكر هو حياة القلوب، وقوت الأبدان، وغذاء الأرواح، بل هو من مزيلات الهموم والغموم كما قرر الشيخ.
وصدق من قال:
إذا مرضنا تداوينا بذكركمُ نترك لذكر أحيانًا فننتكسُ
به تُزال الهموم، وتُجلى الغموم، ويُفَرَّجُ عن المحزون..
قلوب العباد لا تطمئن إلا بذكره...، وألسنتهم لا تنطق إلا بشكره، وأرواحهم لا ترتاح إلا برؤيته- نسأل الله الكريم من فضله.
قال بعض السلف:
ما طابت الدنيا إلا بذكره، ولا طابت الآخرة إلا بعفوه، ولا طابت الجنة إلا برؤيته ... جل في عُلاه.
بل قال بعضهم: الذكر سبعة أنحاء:
- فذكر العين بالبكاء.
- وذكر الأذنين بالإصغاء.
- وذكر اللسان بالثناء.
- وذكر اليدين بالعطاء.
- وذكر البدن بالوفاء.
- وذكر القلب بالخوف والرجاء.
- وذكر الروح بالتسليم والرضا... ا. هـ.
قال أبو الدرداء ﷺ: «لكلِّ شيء جلاء، وإن جلاء القلوب ذكر الله ﷻ».

قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

فلذكر الله أكثر عظيم في حُصُول هذا المطلوب لخاصيته، ولما يرجوه العبد من ثوابه وأجره.

وقال شيخ الإسلام ..... حال السمك إذا فارق الماء» ا.هـ.
وقال ابن القيم ﷺ: «الذكر باب المحبة وشارعها الأعظم وصراطها الأقوم» ا.هـ.
وقال رحمه الله أيضًا: «وأفضل الذكر وأنفعه ما واطأ في القلبُ اللسان وكان من الأذكار النبوية وشهد الذاكر معانيه ومقاصدهُ» ا.هـ.

يُرادُ من القلب نسياكمُ وتأبى الطباعُ على الناقلِ
وإن المحبَّ لديّانهِ يظلُّ على العهد مهما ابتُلي

وكان الثوري رحمه الله يُنشد:

لا لأني أنساك أكثرُ ذكراك ولكنّ بذاك يجري لساني

إذًا فهو لسعادة للأبدان، المزيلُ للأحزان، الكاشف للغموم، الطامس للهموم ... الشافي للقلوبُ، المطهر من أدران الدنيا، ... فلا إله إلا الله وحده لا شريك له.... لا إله إلا الله الحليم العظيم، لا إله إلا الله ربُّ العرش الكريم، لا إله إلا الله ربُّ السماوات وربُّ الأرض وربُّ العرش العظيم. لا إله إلا الله وحده لا شريك له... وهذا التوحيدُ هو أعظمُ الذكر لله ﷻ. ا.هـ.

٦- وكذلك:

التَّحدث بنعم الله الظاهرة والباطنة

فإن معرفتها والتحدُّث بها يدفع الله به الهَمّ والغم، ويحثُّ العبد على الشكر الذي هو أرفع المراتب وأعلاها حتى ولو كان العبد في حالة فَقْر أو مَرَض أو غيرهما من أنواع البلايا.

فإنه إذا قابل بين نعم الله عليه التي لا يحصى لها عَدّ ولا حِسَاب، وبين ما أصابه من مَكروه، لم يكن للمكروه إلى النِّعم نسبة.

بل المكروه والمصائب إذا ابتلي الله بها العبد، وأدَّى فيها وظيفة الصَّبر والرِّضى والتَّسليم، هانت وطأتها، وخَفَّت مؤنتها.

وكان تأميل العبد لأجرها وثوابها، والتعبد لله بالقيام بوظيفة الصَّبر والرَّضى، يدع الأشياء المُرّة حُلوة، فتُنسِيه حلاوة أجرها مَرارة صَبرها.

٧- ومن أنفع الأشياء في هذا الموضع؛ استعمال ما أرشد إليه النبي ﷺ في الحديث الصحيح حيث قال: «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أجدرُ أن لا تَزدروا نعمة الله عليكم»[1].

---

(١) رواه مسلم. قال ابن جرير وغيره: «هذا حديث جامع لأنواع من الخير؛ لأن الإنسان إذا رأى من فُضِّل عليه في الدُّنيا طلبت نفسه مثل ذلك، واستصغر ما عنده من نعمة الله تَعَالَى، وحَرَص على الازدياد ليَلحَق بذلك أو يُقَاربه. هذا هو الموجود في غالب النَّاس، وأما إذا نظر في أُمُور الدُّنيا إلى من هو دونه فيها ظهرت له نعمة الله تَعَالَى عليه فشكرها، وتواضع

فإن العبد إذا نَصَب بين عينيه هذا الملحظ الجليل، رآه يفوق قطعًا كثيرًا من الخَلق في العَافية وتوابعها، وفي الرِّزق وتوابعه، مهما بلغت به الحال فيزُول قَلَقُه وهَمُّه وغَمُّه، ويزداد سُرُوره واغتباطه بنعم الله التي فاق فيها غيره ممن هو دونه فيها.

وكلما طال تأمل العبد بنعم الله الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية رأى ربه قد أعطاه خيرًا كثيرًا، ودفع عنه شُرورًا متعددة.

ولا شك أن هذا يَدْفع الهُمُوم والغُمُوم، ويُوجِب الفَرح والسُّرور.

وفعل فيه الخير» ا.هـ. من شرح النووي لمسلم.

فصل

٨: ومن الأسباب الُموجبة للسُّرور وَزَوَال الهَم والغَم: السعي في إزالة الأسباب الجالبة للهموم وفي تحصيل الأسباب الجالبة للسرور

وذلك بنسيان ما مضى عليه من المكاره التي لا يمكنه ردها، ومعرفته أن اشتغال فكره فيها من باب العبث والمحال، وأن ذلك حمق وجنو[1].

فيُجاهد قَلبُه عن التفكُّر فيها، وكذلك يُجَاهد قَلبُه عن قَلَقِه لما يستقبله، مما يتوهَّمه من فقرٍ أو خوفٍ، أو غيرهما من المكاره التي يتخيَّلها في مستقبل حياته.

فيعلم أن الأمور المُستقبلة مجهولة ما يَقَعُ فيها من خير وشَرٍّ، وآمال وآلام وأنها بيد العزيز الحكيم، ليس بيد العباد منها شيء إلا السَّعي في تَحْصِيل خيراتها، ودَفْع مَضَرَّاتها.

ويعلم العبد أنه إذا صَرَف فكره عن قَلَقِه من أجل مستقبل أمره، واتكل على رَبِّه في إصلاحه، واطمأن إليه في ذلك إذا فعل ذلك اطمأن قلبه وصَلُحت أحواله، وَزَالَ عنه هَمُّه وقَلَقُه.

---

(١) سبق الإشارة إلي هذا في حاشية الوسيلة الرابعة.

٩- ومن أنفع ما يَكُون في ملاحظة مستقبل الأمور استعمال هذا الدعاء الذي كان النبي ﷺ يدعو به: «**اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي إِلَيْهَا مَعَادِي وَاجْعَلْ حَيَاتِي زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ**»(١).

وكذلك قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فلا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لاَ إِلهَ إلاَّ أَنْتَ»(٢).

فإذا لهجَ العبد بهذا الدُّعاء الذي فيه صلاح مستقبله الدِّيني والدّنيوي بقلبٍ حَاضِر، ونيَّةٍ صَادِقة، مع اجتهاده فيما يحقق ذلك؛ حَقَّق الله له مَا دَعَاهُ وَرَجَاهُ، وعمل له وانقلب هَمُّه فَرَحًا وسرورًا(٣).

---

(١) رواه مُسلم.

(٢) رواه الإمام أحمد والبخاري في الأدب المفرد وأبو داود وصحح إسناده الشيخ الألباني رحمه الله في تخريج«الكلم الطيب».

(٣) ومن الأحاديث الجامعة في هذا الباب؛ عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أصاب عبدًا همٌّ ولا حزنٌ، فقال: اللهمّ إني عبدك ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علّمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك: أن تجعل القُرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حُزني، وذهاب همّي وغمّي، إلا أذهب الله همّه وغمّه، وأبدله مكانه فرحًا». قالوا: يا رسول الله: أفلا نتعلمهن؟ قال: «بلى، ينبغي لمن سمعهُن أن يتعلمهُن». رواه أحمد. الألباني في «الصحيحة» به قال ابن القيم رحمه الله: «ولما كان الحزن والهم والغم يضاد حياة القلب واستنارته، سأل أن يكون ذهابها بالقُرآن، فإنها أحرى أن لا تعود، وأما إذا ذهبت بغير القُرآن من صحة أو دُنيا أو جاه أو زوجة أو ولد، فإنها تعود بذهاب ذلك. والمكروه الوارد على القلب إن كان من أمر ماضٍ أَحَدَثَ الحزن، وإن كان من مستقبل أَحَدَثَ الهَمّ، وإن كان من أمرٍ حاضر أَحدثَ الغَمّ، والله أعلم» ا.هـ.

فصل

١٠- ومن أنفع الأسباب لزوال القلق والهموم، إذا حصل على العبد من النكبات: أن يسعى في تخفيفها

بـأن يقدر أسـوأ الاحتمـالات التـي ينتهـي إليهـا الأمـر، ويُوَطِّن على ذلـك نفسـه، فـإذا فعل ذلك فَلْيَسْـع إلـى تخفيف مـا يمكن تخفيفه بحسـب الإِمكان.

فبهـذا التَّوطين وبهذا السَّـعي النافع، تـزول هُمومـه وغمومه، ويكون بـدل ذلك السَّـعْي فـي جَلب المنافـع، وفي دفـع المضار الميسـورة للعبد.

فـإذا حلـت بـه أسـباب الخـوف، وأسـباب الأسـقام، وأسـباب الفقر والعـدم لما يحبه مـن المحبوبات المتنوعـة، فليتلقّ ذلـك بطمأنينة وتوطين للنفـس عليهـا بـل على أشـد ما يمكـن منها.

فـإن توطيـن النفس علـى احتمـال المـكاره، يُهَوِّنهـا ويُزيـل شِـدَّتها وخصوصًـا إذا أشـغل نفسـه بُمدافعتهـا بحسـب مقـدوره.

فيجتمـع فـي حَقـه تَوطيـن النفس مع السـعي النافـع الذي يُشـغِل عن الاهتمـام بالمصائـب، ويُجاهد نفسـه على تجديـد قوته المقاومـة للمكاره، مـع اعتمـاده في ذلـك على اللـه، وحُسـن الثِّقة به.

ولا ريـب أن لهـذه الأمـور فائدتهـا العُظمـى فـي حُصُـول السـرور

وانشـراح الصُّـدور، مـع مـا يؤملـه العبـد مـن الثـواب العاجـل والآجـل.

وهذا مُشاهد مُجَرب، ووقائعه ممن جرَّبه كثيرة جدًا.

فصل

١١- ومن أعظم العلاجات لأمراض القلب العصبية، بل وأيضًا للأمراض البدنية: قوة القلب وعدم انزعاجه وانفعاله للأوهام والخيالات التي تجلبها الأفكار السيئة

لأن الإنسان متى استسلم للخيالات، وانفعل قَلْبُه للمؤثرات من الخوف من الأمراض وغيرها، ومن الغضب والتَّشَوُّش من الأسباب المؤلمة، ومن تَوَقُّع حُدُوث المكاره وزَوَال المَحَاب، أَوقَعَهُ ذلك في الهُمُوم والغُمُوم والأمراض القلبية والبدَنية، والأنهيار العَصبي الذي له آثاره السَّيئة، التي قد شاهد الناس مَضَارها الكثيرة.

١٢- ومتى اعتمد القلب على الله، وتَوَكَّل عليه، ولم يستسلم للأوهام، ولا مَلكتهُ الخيالات السَّيِّئة، وَوَثَقَ بالله وطمع في فضله، اندفعت عنه بذلك الهُمُوم والغُمُوم، وَزَالَت عنه كثير من الأسقام البَدَنية والقَلبية، وحَصَل للقلب من القوة والانشراح والسُّرور ما لا يمكن التعبير عنه.

فكم مُلِئت المُستشفَيات من مَرضَى الأوهام والخيالات الفاسدة؟

وكم أَثَّرت هذه الأُمور على قلوب كثير من الأقوياء، فضلًا عن الضعفاء؟

وكم أدَّت إلى الحمق والجنون؟

والمُعَافَى من عَافَاهُ الله وَوَفَّقه لجهاد نفسه لتحصيل الأسباب النافعة المُقَوِّية للقلب، الدافعة لقلقه.

قال تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٣].

أي: كافيه جميع ما يُهِمُّه من أَمْر دِينه ودُنياه.

فالمُتَوكِّل على الله قَوِيُّ القلب(١)، لا تُؤَثِّر فيه الأوهام، ولا تُزعِجُه الحوادث لِعِلمه أن ذلك من ضَعف النَّفس، ومن الخور والخوف الذي لا حقيقة له.

ويعلم مع ذلك أن الله قد تَكَفَّل لمن توكَّل عليه بالكفاية التَّامَّة، فيثق بالله ويطمئن لوعده، فيَزُولُ هَمُّه وقَلَقُه، ويتبدَّل عُسره يُسرًا، وتَرَحُه فَرَحًا، وخَوفه أمنًا.

فنسأله تَعَالَى العافية، وأن يَتَفَضَّل علينا بِقُوَّة القلب وثَبَاتُه بالتوكل الكامل الذي تَكَفَّل الله لأهله بكل خير، ودفع كل مَكرُوه وضَير.

---

(١) يقول ابن القيم رحمه الله: «والتوكل يجمع أصلين: علم القلب وعمله. أما علمه: فيقينه بكفاية وكيله، وكمال قيامه بما وكَّلَهُ إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك. وأما عمله: فسكونه إلى وكيله وطمأنينته إليه وتفويضه وتسليمه أمره إليه ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه. فبهذين الأصلين يتحقق التوكل وهما جِمَاعُه» ا.هـ. من طريق الهجرتين.

ويقول أيضًا: «فمن حقَّق التوكل على الله لم يكله إلى غيره، وتولاه بنفسه، وتوكل بحفظه وهدايته وإرشاده وتوفيقه وتسديده، وإذا أخذله: وكَّله إلى نفسه أو إلى غيره» ا.هـ. من الفوائد.

فصل

١٣- وفي قول النبي ﷺ: «لَا يَفْرَكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا، رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ»(١) فائدتان عظيمتان:

إحداهما: الإرشاد إلى مُعاملة الزَّوجة والقَريب والصَّاحب والمُعَامل، وكل من بينك وبينه علاقة واتِّصال.

وأنه ينبغي أن تُوَطِّن نفسك على أنه لابد أن يكون فيه عيبٍ أو نقصٍ أو أمرٍ تكرهه، فإذا وجدت ذلك، فَقَارن بين هذا، وبين ما يجب عليك أو ينبغي لك من قوة الاتصال والإبقاء على المحبة، بِتَذَكُّر ما فيه من المحاسِن والمقاصد الخاصَّة والعامة، وبهذا الإغضاء عن المَسَاوئ ومُلاحظة المَحَاسن تَدُوم الصُّحبة والاتصال وتتم الرَّاحة وتَحْصُل لك.

الفائدة الثانية: وهي زَوَال الهم والقلق وبقاء الصَّفاء والمداومة على القيام بالحقوق الواجبة والمستحبة، وحُصُل الرَّاحة بين الطرفين.

ومن لم يسترشد بهذا الذي ذكره النبي ﷺ، بل عَكَسَ القضية، فَلَحظ المَسَاوئ، وعَمَى عن المحَاسن، فلابد أن يقلق، ولابد أن يَتَكَدَّر

(١) رواه مسلم. قال القرطبي في المفهم: «قوله: لا يفرك مؤمن مؤمنة» أي لا يبغضها بعضًا كليًا يحمله على فراقها: أي لا ينبغي له ذلك، بل يغفر سيئتها لِحسنِها، ويتغاضى عما يكرهُ لما يُحِبُّ. وأصل «الفَرك» إنما يقال في النساء. يقال: فركت المرأة زوجها تفركه، وأبغض الرجل امرأته. وقد استعمل الفرك في الرجل قليلًا، وتجوُّزًا، ومنه ما في هذا الحديث».

ما بينه وبين من يَتَّصل به من المحبة، ويتقطع كثير من الحقوق التي على كل منهما المحافظة عليها.

وكثيرٌ من الناس ذوي الهِمَم العَالية، يُوطِّنون أنفسهم عند وقوع الكَوَارث والمُزعِجات على الصَّبر والطمأنينة، ولكن عند الأمور التافهة البسيطة يَقْلَقُون، ويتكدَّر الصَّفاء.

والسبب في هذا: أنهم وَطَّنوا نفوسهم عند الأُمور الكبار، وتركوها عند الأُمور الصِّغار، فَضَرَّتهم، وأَثَّرت في راحتهم.

فالحازم يُوَطِّن نفسه على الأمور القليلة والكبيرة، ويسأل الله الإعانة عليها، وأن لا يَكِله إلى نفسه طَرفة عَينٍ[1]، فعند ذلك يَسهُل عليه الصغير، كما سَهُلَ عليه الكبير، ويبقى مطمئن النفس ساكن القلب مستريحًا.

---

(١) قال الحافظ ابن رجب: «ولا يَقوَى العبد على نفسه إلا بتوفيق الله إياه، وَتَوَلِّيه له. فمن عصمه الله وحفظه: تولاه ووقاه شح نفسه وشرها، وقوَّاه على مجاهدتها ومعاداتها. ومن وكَّلَهُ إلى نفسه: غَلَبَتهُ، وقَهَرته، وأَسَرَتهُ، وجرَّته إلى ما هو عين هلاكه إذا ظفر بعدوه المسلم، بل شر من ذلك؛ فإن المسلم إذا قتله عدوه الكافر كان شهيدًا، وأما النفس إذا تمكنت من صاحبها قتلته قتلًا يهلك به في الدنيا والآخرة... فلهذا كان من أهم المأمور: سؤال العبد ربه أن لا يكله إلى نفسه طرفة عين». ا.هـ.

فصل

١٤- العاقل يعلم أن حياته الصَّحيحة، حياة السعادة والطمأنية،

وأنها قصيرة جدًّا، فلا ينبغي له أن يُقَصِّرها بالهمّ والاسترسال مع الأكدار، فإن ذلك ضد الحياة الصحيحة، فيَشِح بحياته أن يذهب كثير منها نهبًا للهموم والأَكدار ولا فَرق في هذا بين البر والفاجر، ولكن المؤمن له من التَّحَقُّق بهذا الوَصف الحظ الأوفر، والنَّصيب النافع العاجل والآجل.

١٥- وينبغي أيضًا: إذا أصابه مكروه أو خاف منه؛ أن يقارن بين بقية النِّعم الحاصلة له دينية أو دنيوية، وبين مَا أَصَابَهُ من مكروه، فعند المقارنة يتضح كَثرة ما هو فيه من النِّعم، واضمحلال ما أصابه من المكاره.

وكذلك: يُقَارِن بين ما يخافه من حُدُوث ضَرَر عليه، وبين الاحتمالات الكثيرة في السَّلامة منها.

فلا يدع الاحتمال الضعيف يغلب الاحتمالات الكثيرة القوية، وبذلك يَزُولُ همُّه وخوفه، ويُقَدِّر أعظم ما يكون من الاحتمالات التي يمكن أن تصيبه، فيُوَطِّن نفسه لحدوثها إن حدثت، ويَسعَى في دفع ما لم يقع منها، وفي دَفْع مَا وقع أو تخفيفه.

١٦- ومن الأمور النَّافعة: أن تعرف أن أَذِيّة النَّاس لك وخُصُوصًا في الأقوال السَّيئة لا تَضُرّك، بل تَضُرُّهم، إلا إن أشغلت نفسك في الاهتمام بها، وسَوَّغت لها أن تملك مَشَاعرك، فعندك ذلك تَضُرَّك كما تَضُرُّهم فإن أنت لم تُصْغ لها بالًا لم تَضُرّك شيئًا.

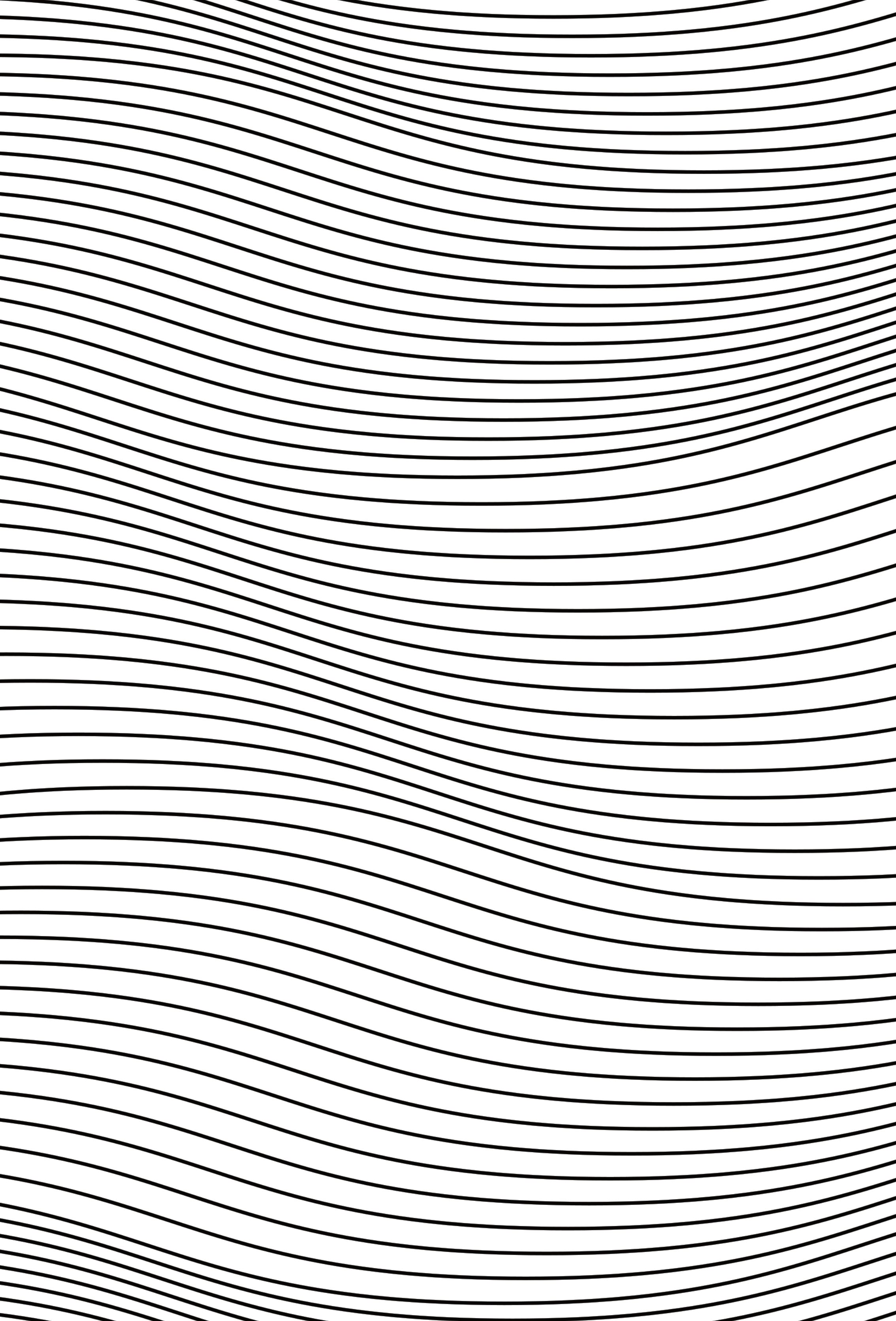
١٧- وأعلم: أن حياتك تَبَعٌ لأفكارك، فإن كانت أفكارًا فيما يعود عليك نفعه في دين أو دنيا، فحياتك طيبة سعيدة، وإلا فالأمر بالعكس.

١١- ومن أنفع الأمور لِطَرْدِ الهَمِّ:

أن تُوَطِّن نفسك على أن لا تطلب الشكر إلا من الله

فـإذا أحسـنت إلـى مـن لـه حـق عليـك، أو مـن ليس لـه حـق، فاعلم أن هـذا معاملـة منـك مـع الله، فـلا تُبَـالِ بِشُـكر من أنعمـت عليه كمـا قال تَعَالَـى فـي حق خواص خَلقه: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان: ٩].

ويتأكـد هـذا فـي معاملـة الأهـل والأولاد، ومن قـوى اتصالـك بهم، فمتـى وطَّنت نفسـك علـى إلقاء الشَّـر عنهـم، فقـد أَرَحْتَ واسـترحت.

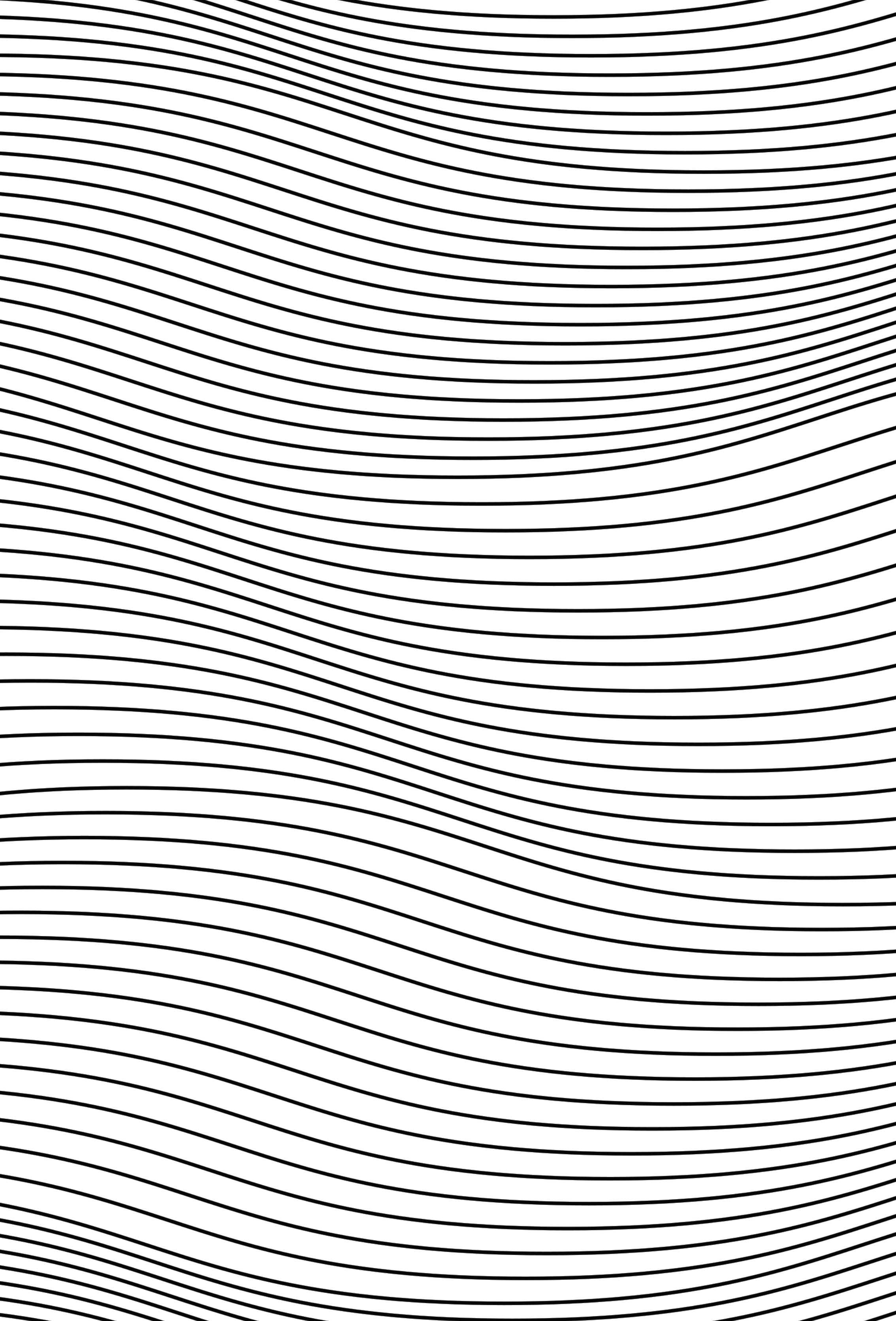


ومـن دواعـي الرَّاحة: أخـذ الفضائل والعمـل عليها بحسـب الداعي النفسـي الذي يقلقك.

وتعـود علـى أدراجـك خائبًـا مـن حصولـه الفضيلـة، حيث سـلكت الطريـق المتلـوي، وهـذا مـن الحكمة.

وأن تتخـذ مـن الأُمـور الكدرة أمـورًا صافية حلوة وبذلـك يَزيد صَفاء اللَّذات وتـزول الأكدار.

اجعـل الأمـور النافعـة نصـب عينيـك واعمـل علـى تحقيقهـا، ولا تلتفـت إلـى الأمـور الضـارة لتلهـو بذلـك عـن الأسـباب الجالبـة لِلْهَـمِّ والحَـزَن، واسـتَعِن بالراحـة، وإجمـاع النفـس علـى الأعمـال المهمـة.



٢٠- ومن الأمور النافعة: حَسْمُ الأعمال في الحال والتَّفَرُّغ في المستقبل

لأن الأعمال إذا لم تُحْسَم، اجتمع عليك بقية الأَعمال السابقة، وانضافت إليها الأعمال اللاحقة فتَشْتَد وطأتها، فإذا حَسَمْت كل شيء بوقته أتيت الأمور المستقبلة بِقُوّة تفكير وقُوّة عَمَل[١].

٢١- وينبغي أن تتخير من الأعمال النَّافعة الأهم فالأهم، ومَيِّزْ بين ما تميل نفسك إليه، وتشتد رغبتك فيه، فإنَّ ضِدَّه يحدث السآمة والملل والكدر[٢].

واستعن على ذلك بالفكر الصَّحيح والمشاورة، فما ندم من استشار[٣]، وادرس ما تريد فعله درسًا دقيقًا[٤]، فإذا تحققت المَصلَحة وعزمت فتوكل على الله، إن الله يحب المتوكلين.

---

(١) وهذا من المعينات للعبد على إنشراح الصدر والسعادة فإن الفوضوية تحدث في النفس بلبلةً، وخلخلةً، فما يجعل صاحبها دائمًا في قلق، وما شرود ذهن، وتفكير دائم حتى يُتَّم عمله...

(٢) وفي الأعمال فاضل ومفضول، ومهم وأهم، فأبدأ بالأهم ثم المهم، من أجل اطمئنان البال، والشعور الدافع للنفس بالتقدم كما حققت نجاحًا.... ثم قدم من الأعمال ما كان أقربُ لنفسك، وأسهلَ على قلبك، لتُنجزهُ فتحقق نجاحًا وتقدمًا... وإبقاء شمعة خيرٌ من ذَمِّ الظلام كما في بعض الأمثال السائرة... ولأنك إن بدأت بما هو أحبُّ إلى نفسك كانت السآمة مدفوعةً عنك في طريقك، وواصلت العمل ولو زادت مشقته.

(٣) وصدق من قال: شاورِ سواك إذا نابتك نائبةً ... يومًا وإن كنت من أهل المشوراتِ

(٤) وفي هذه الفقرة، يَحُثُّ الشيخ عبد الرحمن على التخطيط للأعمال... قبل القيام بها، لحصول أحسن النتائج، وأحبها، مما يعين على راحة البال في النجاح بالعمل...

والحمـد للـه رب العالميـن، وصلـى الله علـى نبينا محمـد وعلى آلهِ وصحبهِ وسـلم.